ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

عنوان المقالة نماذج الشخصيات في رواية "أربعون عاماً بلا مطر"

ا.د مجيد محمدي استاذ مشارك في جامعة الرازي

محمود كريم الهيتاوي طالب ماجستير في جامعة الرازي قسم اللغة العربية وآدابها

Character models in the novel Forty Years Without Rain

Majid Mohammadi
Mahmoud Karim Al-Hitawi
m.mohammadi@razi.ac.ir
mj11325448@gmail.com

الملخص

تُعدّ رواية "أربعون عاماً بلا مطر". الصادرة عام ٢٠٢٤م مادة سردية ثرية لاستكشاف أنماط الشخصيات التي تجسّد أثر التحولات الموسمية في السلوك الإنساني. وتسعى هذه الدراسة إلى تحليل تلك الأنماط وتصنيفها عبر مقاربة نقدية جديدة تقوم على فهم التفاعل بين الطبيعة والخصائص النفسية للأفراد. ويتمحور البحث حول الكيفية التي تُسهِم بها الفصول الأربعة في تشكيل ملامح الشخصيات وأدوارها، ومدى انسجام هذه الملامح مع السمات النفسية المعروفة في نظريات الشخصية.يتناول المقال أنماط الشخصيات في رواية زهراء يوسف من خلال تحليل الشخصية الرئيسة بوصفها نموذجاً دائرياً متعدد الأبعاد، يعبّر عن صراع داخلي بين جسد منهك ووعي متأمل، متردد بين الحنين والانعزال. كما يبرز دور الشخصيات الثانوية التي تؤدي وظائف بنائية داخل النص دون أن تشهد تحولات جوهرية، إذ تعمل على إبراز شعور الوحدة والشيخوخة، والمساهمة في تشكيل المناخ النفسي العام بأسلوب يعتمد الإيحاء وتجنّب المباشرة.يعتمد البحث على المنهج التحليلي الوصفي في دراسة الشخصيات، إلى جانب الإفادة من الدراسات التي تبحث في العلاقة بين الفصول وتبدلات الحالة النفسية للإنسان. ويرتكز كذلك على تحليل نماذج أدبية من ثقافات متعددة للكشف عن كيفية تفاعل الشخصيات مع بيئاتها وتأثير ذلك في نموّها النفسي والاجتماعي. وتبرز الدراسة أهمية هذه الأنماط في صياغة الحبكة الدرامية وفي ديناميكية العلاقات بين الشخصيات، بما يفتح آفاقاً جديدة لفهم حضور الطبيعة في تشكيل السلوك الإنساني داخل الأعمال السردية. وتقدّم الدراسة في الوقت ذاته رؤية قابلة للتطبيق على نصوص أخرى لفهم أنماط الشخصية في الأدب العالمي، مما يسهم في تعزيز مقاربة التحليل الأدبي والنفسي للحكايات الشعبية ضمن سياقات ثقافية متنوعة. وتشير النتائج إلى الدور المحوري للتصنيفات في تفسير بنية الشخصيات في الرواية الحديثة.**الكلمات المفتاحية:** الأدب، الرواية، الشخصيات، أربعون عاماً بلا مطر، زهراء يوسف.

Abstract

The 2024 novel "Forty Years Without Rain" offers rich narrative material for exploring character patterns that embody the impact of seasonal shifts on human behavior. This study seeks to analyze and classify these patterns through a novel critical approach based on understanding the interaction between nature and the psychological characteristics of individuals. The research focuses on how the four seasons contribute to shaping the characters' traits and roles, and the extent to which these traits align with the psychological characteristics known in personality theories.The article examines the character patterns in Zahra Yousef's novel by analyzing the protagonist as a multi-dimensional, cyclical model, expressing an internal conflict between a weary body and a contemplative consciousness, wavering between nostalgia and isolation. It also highlights the role of secondary characters who perform structural functions within the text without undergoing fundamental transformations. They serve to emphasize feelings of loneliness and aging, contributing to the overall psychological atmosphere through suggestion and avoiding directness.The research employs a descriptive approach to character analysis, while also drawing on studies that explore the relationship between the seasons and the changes in human psychological state. It also relies on analyzing literary models from diverse cultures to reveal how characters interact with their environments and the impact this has on their psychological and social development. The

study highlights the importance of these patterns in shaping dramatic plots and the dynamics of relationships between characters, thus opening new horizons for understanding the role of nature in shaping human behavior within narrative works. Simultaneously, the study offers a perspective applicable to other texts for understanding character patterns in world literature, contributing to the enhancement of literary and psychological analysis of folk tales within diverse cultural contexts. The findings point to the pivotal role of classifications in interpreting character structure in the modern novel.

Keywords: Literature, Novel, Characters, Forty Years Without Rain, Zahraa Yousef

المقدمة

تعد الشخصية في الرواية عنصراً محورياً في تشكيل البناء السردي، فهي الإطار الذي تجسد من خلاله الوقائع، وتتكون عبره البنية الدرامية للنص ولأن الرواية جنس أدبي يعكس التجربة الإنسانية عبر تمثيلات سردية متباينة، فإن وجود شخصيات تتحرك داخل زمان ومكان محددين، وتنسج فيما بينها علاقات متعددة ومتداخلة، بعد أساسا في الكشف عن أبعادها النفسية. والاجتماعية والفكرية هي مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار العامة وتعمل الشخصية بشكل كبير في بث الروح والحياة والحركة في السرد، سواء كانت شخصية يلفها الغموض أو شخصية يكسوها الوضوح، فهي من ثم مصدر إشعاع وتألق للقصة. وتقوم أيضاً في بعض الأحيان بتولي مهام الراوي نفسه أو المروي له . عشتار ٢٠٠٥م، ص (١٥٢) وعليه، فإن دراسة أنماط الشخصيات لا تعد جانباً شكليا فقط، بل ترتبط ارتباطاً مباشراً بالطبقات الدلالية العميقة، وبالأنساق الثقافية التي تحتضنها الرواية بوصفها خطابا ادبيا وفنيا . تتألف الشخصية من مجموعة من الاستعدادات والميول والدوافع والقوى القطرية، بالإضافة إلى الصفات والميول التي تم اكتسابها . «سامية ، ١٩٨٣م، ص ١١٨) وبذلك يتضح أن دراسة أنماط الشخصيات لا تقتصر على تصنيفها وفق صفاتها الخارجية أو وظائفها في السرد، بل تمتد إلى تحليل بنيتها الداخلية ورصد التحولات التي تطرأ عليها داخل مجرى الرواية، مما يضفي عليها طبيعة ديناميكية تعمق البناء الفني للنص. فكل شخصية يعاد تشكيلها داخل الخطاب الحكائي تبعاً لما تظهره من صراعات وتفاعلات وتبدلات، الأمر الذي يسمح للنقاد بالتعامل معها بوصفها رؤية قائمة بذاتها، تحمل دلالاتها وأسئلتها حول الهوية والحرية ومسار الوجود الإنساني. ومن ثم فإن فهم الشخصية عبر نمطها يشكل مدخلاً أساسيا لاستكشاف البنية العميقة للرواية، والتأمل طرائق تمثيلها للواقع والثقافة والإنسان معا.في هذا السياق، تقدم الرواية نموذجا متميزا ببين تأثير الجفاف الروحي والمادي على الإنسان فالجفاف في الرواية لا النصر على انقطاع المطر فحسب بل يتجسد من خلاله انقطاع البركة والفضيلة، مشكلا أنماطا من الشخصيات التي تتفاعل مع هذه الأزمة الوجودية.هذه الرواية تظهر كيف يمكن للجفاف أن يؤثر بشكل عميق على سلوك الإنسان، سواء كان ذلك في يأس البعض من أرض لا تثمر أو تيه الآخرين في مجتمع يرفض استقبال صوت الحقيقة أو صمود القلة في وجه الفساد، أو انهيار الآخرين أمام تناقضاتهم. وقد أكدت الرواية أن سنوات الجفاف الطويلة تتوزع على الشخصيات لتشكل أبعادا من المعاناة والصراع الأخلاقي. من هذا المنطلق. يمكن القول إن الشخصيات في الرواية ليست مجرد رموز سردية، بل هي تمثيلات للتيارات النفسية التي تتشكل في ظل الأزمات الممتدة توظف الرواية لغة درامية تعتمد على الترميز والاستعارة، فتحول حياة المجتمع اليومية إلى فضاء مشحون بالدلالات الأخلاقية والروحية. تتقاطع عباراتها مع إيقاع تراجيعي داخلي يمنح السرد قوته التأثيرية، دون أن تفقد اللغة واقعيتها.تعتمد الرواية على بناء سردي متعدد الأصوات يغوص في أعماق الشخصيات، كاشفا عن صراعاتها الداخلية وتساؤلاتها حول العدل والإيمان والخلاص في عالم يئن تحت وطأة الجفاف والفساد. فشخصيات الرواية – من الحكيم المنبوذ إلى المصلح المكافح، ومن الأبناء الوفياء إلى الشباب الضال – تشكل معا نسيجا إنسانيا معقدا يرسم خريطة أخلاقية الصراع الخير والشر في ظل ظروف قاسية.قدم هذا البحث معالجة لمفهوم الشخصية من جوانبه اللغوية والاصطلاحية، متبوعاً بإضاءة موجزة على سيرة الكاتبة وعرض لأهم محطات الرواية. كما خصص جزء من الدراسة لتحليل الشخصيات الرئيسة وبيان دورها في دفع البنية السردية والتعبير عن القضايا المركزية، إضافة إلى دراسة ملامح الشخصيات الثانوية، سواء الثابتة منها أو المتغيرة، والكشف عن أثرها في مسار الأحداث وتعزيز البناء الحكائي.

الدراسات السابقة

لم يسبق بحسب ما توافر من مصادر أن كُتبت دراسة مستقلة تتناول أنماط الشخصيات في رواية "أربعون عامًا بلا مطر" للكاتبة زهراء يوسف، إذ إن هذه الرواية حديثة الصدور، وقد نُشرت عام ٢٠٢٤م. ومع ذلك، فإن الساحة النقدية تزخر بعدد كبير من الكتب والدراسات والأبحاث التي عالجت موضوع أنماط الشخصيات بوجه عام ومنها:

١. رياض حسن هادي (٢٠١٧م) أنماط الشخصيات في روايات ميسلون هادي جامعة القادسية كلية التربية القادسية العراق. في هذا البحث بدراسة أنماط الشخصيات في روايات الكاتبة العراقية " ميسلون هادي لاسيما وأن النص الروائي به حاجه

٢- ايناس شديفات (٢٠٢١م) أنماط الشخصية في رواية (سووشون) لسمين دانشور مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة. تركز هذه الدراسة على الشخصيات في رواية (سووشون) وتكمن أهمية الدراسة في بيان الشخصيات الرئيسية والثانوية في الرواية، وتوضيح صفاتها الجسمانية والنفسية والإجتماعية ودلالة كل اسم من أسماء الشخصيات.

٣- كريمان حامد (٢٠٢٣م) أنماط الشخصية في رواية " شرق النخيل" لبهاء طاهر مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث، يقوم هذا البحث على دراسة أنماط الشخصية في رواية شرق النخيل للكاتب بهاء طاهر للوقوف على أهم ما يميز تصوير الشخصيات داخل العمل السردي والكشف عن مدى إجادة الكاتب في تصوير الشخصية داخل اللحظة المناسبة.

ملخص عام عن الرواية

تُعدّ رواية "أربعون عامًا بلا مطر" للكاتبة زهراء يوسف من الأعمال الأدبية البارزة التي تناولت قضايا اجتماعية وثقافية بأسلوب فني جذاب، يشدّ القارئ منذ الصفحات الأولى. تسرد الرواية حكاية قرية عُرفت قديماً بالأمن والسكينة، حيث كان أهلها ينعمون بالرخاء، وتتدفّق عليهم الخيرات من السماء، فتفيض أرضهم بالبركة والعطاء. غير أن هذه القرية التي بدت كأنها فردوس آمن، ما لبثت أن تحولت إلى أرض قاحلة جفّ عنها المطر بعد وقوع جريمة فادحة غيّرت مصيرها بالكامل.تنطلق أحداث الرواية من مشهد الفساد والخيانة التي تفشّت بين سكان القرية، إذ أقدموا على قتل سيدهم، واغتصبوا حق أسرته، ثم أحرقوا داره وأجبروهم على الرحيل عن أرضهم. تركت هذه الجريمة أثراً عميقاً في كيان القرية، فكانت سبباً في انقطاع المطر وذهاب البركة التي عرفت بها أرضهم. شكّلت هذه الحادثة نقطة فاصلة في تاريخ القرية، إذ تحولت الأرض إلى يابسة لا تُنبت، ودخلت الحياة في دوامة من الجفاف والقحط التي طالت كل مظاهر الوجود.وتسلّط الرواية الضوء على التحولات الاجتماعية التي أصابت حياة أهل القرية بعد تلك الفعلة، إذ ساد الانحلال الأخلاقي وانتشر الفساد، وكأن السماء قد أدارت ظهرها لهم وأغلقت أبواب رحمتها. ومن خلال هذا التحول القاسي، تبرز الرواية العلاقة الوثيقة بين الإنسان والطبيعة، مبيّنة كيف تنعكس تصرفات البشر سلباً على محيطهم وعلى حياتهم اليومية. كما تعبّر الأحداث بوضوح عن فكرة العقاب الإلهي، وتأثير الذنوب والأفعال المشينة في الفرد والمجتمع على حدّ سواء.

الشخصية لغة واصطلاحاً

يبيّن ابن منظور أن لفظ الشخص «جماعة شخص الإنسان وغيره، مذكر والجمع أشخاص وشخوص وشخاص. والشخص كل جسم له ارتفاع وظهور والمراد به إثبات الذات فاستعير لها لفظ الشخص، وقد جاء في رواية أخرى: لا شيء، أغير من الله، وقيل: معناه لا ينبغي لشخص أن يكون أغير من الله.» (ابن منظور، ١٩٩٩م، ص٥١) كما أورد الجوهري في الصحاح أن «الشخص: سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد. يقال: ثلاثة أشخص، والكثير شخوص وأشخاص وشخص الرجل بالضم، فهو شخيص، أي جسيم والمرأة شخيصة. وشخص بالفتح شخوصا، أي ارتفع. يقال: شخص بصره، فهو شاخص، إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف.» (الجوهري، ١٩٩١م، ص١٠٤٢)وفي نفس السياق عرفها ابراهيم بأنها «مشتقةٌ من التشخيص بحيث يستمد مادةَ من تشخيصِ الحالةِ في علم النفس، ثم يطورُ المصطلح ليصبحَ من عناصر الكتابة السردية وتشخيص الأحداث بصورة مميزة » (فريال، ١٩٩٩م، ص١٧، ١٨) وأوردها الخليل في كتاب العين بقوله: «شخص الشخص سواء الإنسان إذا رأيته من بعيد وكل شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه، وجمعه: الشخوص والأشخاص» (الخليل، ٢٠٠٣م، ص٣٢٥) وجاء في المعجم الوسيط أن لفظ الشخصية يُقصد به مجموعة الصفات والسمات التي ينفرد بها الفرد وتميّزه عن سواه، ويُقال: »فلان ذو شخصية قوية، ذو صفات متميزة وارادة وكيان مستقل» (إبراهيم، ٢٠٠١م، ص٤٧٥)

اصطلاحاً: تشكل مركز الثقل السردي الذي تتوالد منه الأحداث، وتُحافظ على وحدة الرواية وتماسكها

»هي القوة الدافعة المحورية التي تُسهم في تحريك الأحداث وتمنح الرواية تماسكها واستمراريتها هي محور العام والرئيسي الذي يتكفل بإبراز الحدث وعليها يكون العبد الأول في الإقناع بمدى أهمية القصة وقيمتها.» (عبد الخالق، ٢٠١٠م. ص٤٠) ويُسهم ذلك في التفريق بين الشخصية المؤثرة وتلك غير المؤثرة، كما يُظهر الدور الجوهري للغة في تشكيل البنية العامة للرواية. وبالتالي الشخصية «تعتبر مصدراً رئيسياً للجوانب الإنسانية، حيث تتأثر غالبيتها بميولها واستعداداتها رئيسية الشخصية تعتبر مصدر الجسمية والعقلية والنفسية ، تتشكل الشخصية كنتيجة لتفاعلات بين جوانبها المختلفة، حيث تسعى الفردية إلى إثبات ذاتيتها الإنسانية وتطوير أسلوب خاص بها للتكيف مع التحديات في الحياة الشخصية تكون تابعة للفعل أو لموضوع، وبغض النظر عن تنوع التعريفات والتعقيدات التي قد تظهر في تفسيرها، يبقى التركيز على اثنين من الجوانب الأساسية.» (قاسم، ١٩٨٤م، ١٤) وعرفها جيرارد بأنها «كائن له سماتٍ و منخرط في أفعال إنسانية. ممثل له صفات إنسانية ويمكن أن تكون الشخصيات الرئيسية أو الثانوية، (طبقاً لدرجة بروزها النصي)، ديناميكية (حركية عندما يطرأ عليها التبادل) أو استاتيكية (ساكنة-عندما لا تكون قابلة للتغير)،

منسقة (عندما لا تتناقض صفاتها مع أفعالها)، أو غير منسقة؛ مسطحة (بسيطة ذات بعدين، قليلة السمات، يمكن التنبؤ بسلوكها ببساطة)، أو مستديرة (معقدة، ذات أبعاد مختلفة، قادرة على إثارة الدهشة بسلوكها)، ويمكن أيضاً تحديدها طبقاً لأعمالها وأقواها ومشاعرها ومظهرها، الخ.» (جيرالد، ٢٠٠٣م، ص٣٠)

الشخصيات الرئيسية

هي الشخصية المحورية في العمل السردي التي تتقدم من خلالها الأحداث ويُبنى عليها تطور الفعل، وهي«التي تقود الفعل وتدفعه إلى الإمام في الدراما والرواية أو أي أعمال أدبية أخرى ، وتعني الكلمة في أصلها اليوناني المقاتل الأول، وليس من الضروري أن تكون الشخصية الرئيسية بطل العمل دائما ولكنها دائما هي الشخصية المحورية ، وقد يكون منافس أو خصم لهذه الشخصية.» (ابراهيم، ١٩٨٦م، ص٢١١، ٢١٢) فهي «المغامرة الشجاعة المعقدة بكل الدلالات التي يوحي بها لفظ معقدة، والتي تكره وتحب وتصعد وتهبط وتؤمن وتكفر وتفعل الخير كما تفعل الشر وتؤثر في سَوائها تأثيراً واسعاً.» (مرتاض، ١٩٩٨م، ص ٨٩) وانطلاقاً من هذا التعريف، يمكن تحديد أبرز الشخصيات التي تنهض بالحدث داخل الرواية، ومنها:

محمد

محمد هو البطل التراجيدي والضمير اليقظ للرواية. وهو شخصية معقدة تحمل في داخلها جراحًا عميقة من ماضٍ مظلم حيث قُتل والداه وتيتم. يعيش في القرية منبوذاً، يُطلق عليه لقب "المجنون" من قبل أهلها، ليس لأنه فقد عقله، بل لأن وعيه تجاوز حدود قبولهم وانغماسهم في الرذيلة. إنه النذير الذي يرى الحقيقة ويحاول إيقاظ الناس من غفلتهم، لكنهم يرفضون سماع صوته لأنه يذكرهم بذنوبهم ويهدد راحتهم الوهمية. شخصيته هي المحور الذي تدور حوله الصراعات الأساسية في الرواية: الصراع بين الخير والشر، وبين الحقيقة والإنكار، وبين الإصلاح والفساد. كما في المقطع التالي: «إنني أريد حياة جديرة بالحياة، حياة سوية يستطيع الجميع فيها العيش على الفطرة السلمية، أريد أن ينتهي هذا الفقر وهذه الأمراض وكل هذه الابتلاءات المخيفة التي تنذر بشؤم في أعالي السماء ولكن لا تشعرون بالإيمان وحده نستطيع أن نتخطى كل شيء ونتحدى العقبات ونتجاوز الكوارث، وقبل ذلك يجب أن توفق للتوبة وكي نتوب يجب أن نعرف ذنوبنا ونقر بها.» (الرواية ، ٢٠٢٤م ص٢٠، ٢١) يبدأ محمد كلامه بعبارة "أريد حياة جديرة بالحياة". هذه العبارة تظهر أنه ليس مجرد ناقد سلبي، بل هو مُصلح يحمل رؤية بديلة. رغبته ليست في تدمير القرية، بل في إنقاذها وتحقيق حياة كريمة لأهلها. هذا يرفعه من مستوى "المجنون" المتشائم إلى مستوى الحكيم والمُنظر الاجتماعي والديني. إذ يشخص محمد علل قريته بوضوح: الفقر، الأمراض، الابتلاءات. لكنه لا يرى هذه العلل كمصاعب طبيعية، بل يربطها بشكل مباشر بحالة المجتمع الأخلاقية والروحية. عبارة "تنذر بشؤم في أعالي السماء" تؤكد أن لديه رؤية غيبية للأحداث؛ فهو يرى أن مشاكل الدنيا انعكاس لسخط السماء.العبارة الرئيسية "ولكن لا تشعرون" هي لبُّ الصراع الدرامي في الرواية. هذه العبارة تلخص سبب عزلته وسبب معاناته. إنه يرى الكارثة القادمة، لكن الناس في غفلة وجحود. هذا يخلق تناقضاً مأساوياً: الأكثر وعياً هو الأكثر عزلة، والأكثر غفلة هم من يحكمون عليه بالجنون. يظهر من ذلك أن محمداً ليس مجرد ضحية، بل هو فاعل رئيسي ومحور الصراع في الرواية، حيث تمثل شخصيته الصراع بين قيم الحق وقيم الباطل. مما يبين عمق شخصيته وتعدد مستوياته التي تغذي البناء الدرامي وتشكّل جوهر الصراع في النص.بعد أن استنكر أهل القرية صرخات محمد الأولى واتهموه بالهذيان، لم يكتفِ بصمته بل انفجر غضبًا مدفوعاً بإحساسه العميق بالمسؤولية، ليرد عليهم بحقيقة مرة تفضح نفاقهم وجهلهم، قائلًا: «مسح محمد الدم عن طرف أنفه وهو يضحك بسخرية:

– المساء طبعا، المساء

عاد لينهض بقوة وهو يصرخ بغضب مخاطبا الجميع:

عملكم ومصدر رزقكم العفن الذي تأكلونه وتقتاتون منه دون خوف من الله أو خجل، إنكم مساكين لا تملكون كشف الضر عنكم ولا تتفكرون حتى في سبب وقوعكم في هذا البلاء، لم تجدوا ما يخرجكم من فقركم سوى الشيطان فزدتم بلاءكم بلايا ورزايا ثم ضربتم بدين الله وشريعته عرض الحائط، وقلتم إن هذا حضارة متقدمة! أهكذا تبررون ؟! أصبح كل فاسق يأتي لهذه القرية، ومن وراء ذلك كنتم تأكلون، أربعون سنة أنبتُم لحومكم على الحرام وما كبرتم كروشكم إلا بالنيران....

هز رأسه بأسى شديد وهو يتمتم:

– لقد فسقت هذه القرية تماما وأنتم في غمرة تلعبون...» (الرواية، ٢٠٢٤م، ص٢٩) يُجسّد هذا المقطعُ ذروةَ تحوّل محمد من الضحية المنعزلة إلى الناقد الجريء، حيث يفضح من خلال خطابه المُفعَم بالسخرية والغضب الجوهرَ الفاسد لأهل قريته. فبعد أن مسح الدماء عن وجهه ضاحكاً

بسخرية، ليُعلن رفضه للانكسار، انطلق يهاجم مصدر رزقهم "العفن" وربط بين فقرهم الأخلاقي والاقتصادي، كاشفاً المفارقة المأساوية في كونهم مساكين لا يقدرون على كشف الضرر عن أنفسهم رغم ترفّعهم الوهمي. كما حمّلهم مسؤولية تدهور أحوالهم، مؤكداً أن تخلّيهم عن دين الله وتبنيهم لمفاهيم حضارية مزيفة تحت مبرّرات واهية هو ما دفعهم إلى استباحة المحرّمات على مدى أربعين عاماً، لتنتهي رؤيته التشخيصية الجريئة بإعلان حتمية هلاك القرية التي أصبحت غارقة في الفسق واللهو، مما يجعله صوتاً نبوئياً ينذر بعواقب ما وصلت إليه من انحدار. وهو ما يجعل دوره مركز الحركة الدرامية ومفتاح فهم مسار الأحداث وتحوّلاتها.

هادي

يُمثِّل الشيخ هادي الأب الروحي والمُنقِذ الأسطوري للقرية. فهو ليس مجرد عالم أو شيخ تقليدي، بل هو رمز الأمل والإصلاح الذي يَحمل في شخصيته هيبةً وحكمةً استثنائيتين. عادتَه من رحلة العلم البعيدة في اللحظة الحرجة التي كانت القرية على شفا الهلاك، جعلتْه في عيون أهلها "الغيث" الذي أنقذهم بعد جفاف طويل، ليس جفاف المطر فحسب، بل جفاف القِيَم والمعرفة. شخصيته الرئيسية تتجلى في كونه المُصلح الشامل الذي يحمل مشروعاً متكاملاً لتغيير واقع قريته من كل النواحي. وتكشف الرواية عن هذه المكانة عبر المقطع التالي: «أقبل كالغيث. الرجل المهيب الذي كان قد غادر منذ زمن إلى مكان بعيد لينهل منه علما وحكمة ويَتتلمذ على أيدي كبار العلماء ها قد عاد في وقته تماما، وأنقذ مدينته وأهلها من الهلاك، تقدم إليه صاحبه

– عُدت أخيرا !

يبتسم بملء فمه وهو يتخطى الزحام حوله ويمسح بكفه على أكتافهم:

عدت عُدتُ ولدي الكثير من الآمال بخصوص القرية بخصوصكم جميعا، أعدكم سيتغير كل شيء إلى الأفضل يا أصحابي.» (الرواية، ٢٠٢٤م، ص٤٠) يُبرِز هذا المقطع المُستهل من ظهور الشيخ هادي المكانة الأسطورية والأبوة الروحية التي يتبوؤها كشخصية رئيسية محورية. فالمقارنة البلاغية "أقبل كالغيث" لا تُصوِّره مجرد بشر، بل تُضفِي عليه صفة المُنقِذ السماوي، حيث يرمز "الغيث" إلى الخير والبركة والحياة التي تتبع القحط، مما يجعله محورَ حلِّ أزمة القرية الوجودية. تظهر هَيْبَته من خلال الحشود التي "تزاحمت" حوله، وهو بدوره يردُّ بتواضع الأب الحنون الذي "يمسح بكفه على أكتافهم"، جامعاً بين القيادة والحميمية في آنٍ واحد. وعودته في "وقته تماماً" تؤكد دوره كبطل مقدر له إنقاذ مجتمعه، بينما تُظهر وعوده الواثقة "سيتغير كل شيء إلى الأفضل" رؤيته الشاملة للإصلاح وثقته المطلقة بقدرته على قيادة التغيير، مما يجعله حجر الزاوية في بناء الأمل واستقطاب قلوب الناس، وبالتالي المحرك الأساسي للأحداث الإيجابية في القصة.بينما كان محمد يحمل في قلبه جراح الماضي وضياع النموذج الروحي الذي مثّله الشيخ هادي، لم يجد سوى التعلق بآثاره وبمن تبقى من تلامذته، فكان يتنقل بين ذكريات الماضي وأمل المستقبل قائلاً: «لا أحد هنا يعرفُ الله ويتصل معه على النحو الذي كان عليه الشيخ هادي، أهله فقط، كانوا كذلك، لم يبقوا منهم باقية. إنني أحاول التلصص على الشيخ عمران؛ لأنه تلقى دراسة مباشرة من الشيخ هادي، ولو لفترة وجيزة وذلك ريثما يعود نور الذي أثق بعودته وأثق أنه الشخص الوحيد الذي سيكون هادي زماننا. يعاملني الشيخ عمران بطيبة وتواضع وكنتُ أمر عليه للجلوس معه ومحادثته لم أكن أريد أن يقطع الاتصال بيننا فهو عزائي هنا.» (الرواية، ٢٠٢٤م، ص٢٤) يُبرِز هذا النصُّ شخصيةَ الشيخ هادي كنموذجٍ روحيٍّ أسطوريّ تجاوز حضوره الزمني ليصير معياراً للصلاح والاتصال بالله. فمحمد – الراوي – لا يصفه بمجرد عالم أو مصلح، بل يضعُه في مرتبةٍ فريدةٍ من المعرفة الربانية التي انقرضت باختفائه، مما يجعله المحور الذي تدور حوله التوقعات الروحية في الرواية. ويظهر تأثيره الرئيسي من خلال كونه المقياس الذي تُقاس عليه الشخصيات الأخرى، حيث يصبح الشيخ عمران مجرد حلقة وصل مؤقتة، ونور هو الأمل الوحيد لاستعادة هذا النموذج الفذ. كما أن تعلق محمد بهادي رغم غيابه يؤكد دوره كحاضنة روحية دائمة، تمنح العزاء وتشكل المنظومة القيمية للرواية، مما يجعله الشخصية الرئيسية التي تستمر في قيادة الأحداث وتشكيل المصائر حتى بعد رحيلها الجسدي.ومن خلال تعلُّق محمد بآثار الشيخ هادي وتلميذه، نكتشف أن سرَّ هيبة الرجل لم تكن في علمه فحسب، بل في روحانيته العميقة التي تجلَّت في عبادته، حيث يصفه الراوي وهو في محرابِه: «كان يصلي وله خشوع وخضوع عجيب في أثناء تلك الصلاة كان أحدهم يُراقبه من عند باب المسجد، ويُحدث نفسه بتعجب. بقي ذلك الشخص يُراقب حالات الشيخ هادي، عينيه الكحيلتين دموعه التي تجري خالصة في مناجاة ربه فتَنحدر على لحيته الكثيفة التي يخالطها بعض الشيب، أتى صوته وكم كان يحمل في أوتاره أحوالا كثيرة. وقارا، راحة ورجاء، خشوعا وحباً كبيرًا، كان صوته الرجولي هادئا وهو يتلو تلك المناجاة.» (الرواية، ٢٠٢٤م، ص٤٩) يُقدّم هذا النصّ تحليلًا لشخصية الشيخ هادي من خلال عينَي مراقبٍ ينظر إليه في لحظة خلوةٍ مع الله، مما يجعله النموذج الحي للروحانية الأصيلة. فـ"الخشوع والخضوع العجيب" ليسا مجرد صفة عابرة، بل هما جوهر اتصاله بالله، مما يجعله يمثل التوازن النادر بين القوة الرجولة والرهبة الروحية. وتظهر "دموعه

التي تجري خالصة في مناجاة ربه" صدقَ العلاقة القلبية التي تجعله أبًا روحياً لا مجرد شيخٍ تقليدي، حيث تتحول العبادة من طقوس إلى حوار حي. كما يكشف الصوت الهادئ الحامل "لأحوال كثيرة" عن شخصية متعددة الأبعاد، تجمع بين الوقار والراحة والرجاء والحب الكبير، مما يجعله ملاذًا روحانيًا ليس لأهل القرية فقط بل للقارئ أيضاً.

ليث

ليث هو الأخ الأصغر للشيخ هادي ويمثل الامتداد العملي لقيم الإصلاح والإحسان، حيث يجسّد دور الأب الروحي والحاني الذي يخصص جهوده لرعاية الفئات المستضعفة، وخاصة الأيتام، كما في المقطع التالي: «كان ليث يصطحبنا ويُخرجنا معه وكان يعشق الأيتام ويهتم بهم ذاك الاهتمام النادر الفريد من نوعه، إنه يقوم بدور الأبوة لهم فبالإضافة إلى إطعامهم وكسوهم فهو يلاعبهم ويقص لهم القصص والأحاجي.

كأن يأنس بنا نحن اليتامى، يُمازحنا ويضحك من قلبه حتى أنه كان يخيل إلى أن جلساته معنا هي أجمل أوقاته بالنسبة إليه» (الرواية، ٢٠٢٤م، ص٦٢) تُظهرُ شخصية ليث في هذا النصّ بُعداً إنسانياً عميقاً يكمِل دور أخيه الشيخ هادي الإصلاحي، حيث يجسّد الأبوة الروحية والعطف العملي الذي يملأ الفراغ العاطفي لليتامى. فاهتمامه بهم لا يقف عند حدّ الكسوة والإطعام، بل يتعداه إلى المشاركة الوجدانية الحقيقية من خلال ملاعبتهم ورواية القصص، مما يجعله أباً بديلاً لا يُقدم الطعام للجسد فقط، بل يُطعِم الروح بالفرح والطمأنينة. وتلك الجلسات التي يصفها الراوي بأنها "أجمل أوقاته" تكشف عن نقاء داخلي وصفاء قلب، حيث يجد ليث سعادته الحقيقية في العطاء لا في التلقّي، مما يجعله امتداداً حياً لقيم الشيخ هادي، لكن بطابعهِ الشخصي المليء بالدفء والبساطة، مؤكداً أن الإصلاح لا يكون بالعلم والخطب فقط، بل بالحنان والفكاهة والوجود الإنساني الفعّال.

كوثر

كوثر هي ابنة الشيخ هادي، وتُمثّل الابنة المخلصة والحريصة التي تجسّد الامتداد العاطفي والأخلاقي لوالدها. تجمع في شخصيتها بين الطاعة الواعية والمسؤولية المبكّرة، حيث تظهر كحارسة لبيت أبيها وقِيَمه، وقادرة على قراءة مشاعره والتعامل مع المواقف بحكمة ناضجة رغم صغر سنها. عن طريق هذه الشخصية المتوازنة، نرى كيف تتفاعل كوثر مع توجيهات والدها في موقف عائلي عادي يحمل دلالات عميقة: «ما إن أدار ظهره حتى وجد الشيخ هادي في وجهه، نظر إلى عبد الرحمن بصمت بعدما برر عبد الرحمن سبب مجيئه، انصرف ودخل الشيخ هادي وأغلق الباب وراءه، ولأن كوثر تحفظ تعابير والدها عن ظهر قلب فهمت استياءه؛ فقدمت اعتذارها فورا

– أعتذر لك يا أبي، هذا لن يتكرر.

– أريدك فقط أن تنتبهي لأمور قد تغفلين عنها رغم أهميتها.

بينما هما كذلك إذ بالباب يُطرق، همت كوثر بالتقدم لفتحه، نادها

والدها بتعجب:

كوثر !! ماذا كنا نقول ؟ الوقت متأخر ، كيف تفتحين الباب في مثل

هذا الوقت؟» (الرواية، ٢٠٢٥م، ص٥٥، ٥٦) يُجسد هذا المقطع العلاقة الاستثنائية بين كوثر ووالدها، القائمة على الملاحظة الدقيقة والطاعة الذكية. فقدرَتها على "حفظ تعابير والدها عن ظهر قلب" تكشف عن ارتباط عاطفي عميق ووعي بمسؤولياتها كابنة وحارسة للبيت. اعتذارها الفوري "هذا لن يتكرر" لا يعكس خضوعاً أعمى، بل إدراكاً واعياً لأهمية الحفاظ على معايير الأسرة. كما أن توجيه والدها "أن تنتبهي لأمور قد تغفلين عنها" يظهر ثقته بها كشريكة في مسؤولية البيت، لا مجرد ابنة مطيعة. أما الموقف الأخير فيكشف عن دورها الفعّال في إدارة شؤون المنزل، حيث تهمّ بفتح الباب قبل أن يوقفها والدها، مما يظهر التوازن بين مبادرتها الشخصية وتوجيهات والدها، مجسدة بذلك صورة الابنة التي تجمع بين الاحترام والمسؤولية في آن واحد.

الشخصيات الثانوية

هي الشخصيات التي لا تشكّل مركز السرد، لكنها تؤدي أدواراً مساندة أو متممة للشخصيات الرئيَسة ولحَركة الأحداث. وقد تكون وظيفتها سردية أو رمزية أو جمالية، إذ تسهم في نسج العلاقات داخل النص، وتعزيز تطور الحبكة، وكشف جوانب إضافية من ملامح الشخصيات المحورية. «وتلعب الشخصية الثانوية عادة دوراً داخل إطار شخصية الرئيسية، وتساهم في بناء العلاقات ووصف الشخصيات وتطور الحبكة الروائية، ولكنها عادة ما تكون أقل أهمية من الشخصية الرئيسية (صالح، ٢٠١٥م، ص ٦٨) ومن هنا يتضح أن حضورها، على الرغم من كونه أقل مركزية، يبقى ضرورياً لحركة السرد، خاصة أن «دور الشخصيات الثانوية في تصعيد الأحداث لايقل أهمية عن دور الشخصيات الرئيسية، فهي شخصيات

متأثرة في كل رواية، وتساعد الشخصية الرئيسية في أداء مهمتها و أبراز الأحداث، فهي ليست أقل حيوية وعناية من القاص وكثيراً ماتحمل الشخصيات أراء المؤلف.» (هلال، ١٩٧٣، ص٢٠٥) وتزداد أهمية هذه الشخصيات عندما تأتي ضمن نمط محدد من البناء، مثل الشخصيات «ذات البعد الواحد التي تستطيع أن تتعرف عليها منذ البداية وتحد تصرفاتها مستقيمة في اتجاه محدود وحتى نهاية العمل.» (سلامة، ٢٠٠٤م، ص١٨) وبهذا تتكامل الأدوار الثانوية لتُسهم في اتساق العالم الروائي وإضاءته، رغم ابتعادها عن محور السرد الأساسي. ومن الشخصيات الثانوية التي جاء ذكرها في الرواية:

ماريا

تُعدُّ ماريا في الرواية صوتَ التمرد على الواقع الفاسد، فهي الفتاة التي ترفض الاستسلام للعبث واليأس. تظهر من خلال حوارها مع أبيها كمرآة تعكس إحباط الشباب وإدراكهم لحقيقة الأوضاع المزرية. فالمزرعة الميتة في خطابها رمزٌ لليأس والإصرار المجتمعي على تكرار الفشل. من خلال هذه الشخصية الناقدة، نرى ماريا تثور ضد واقعها المأساوي: «ما زال يُجبرني أبي على تفقد تلك المزرعة الميتة!وكأنه لا يكفي أن أزرع وأسقي، رغم علمي أنه لن يجدي نفعا، متى يقتنع ألا خير لنا من هذه الأرض؟ متى يكف عن تعذيبي بعمل لا جدوى منه؟ فإنني انصهر يوميا تحت هذه الشمس !دخلت إلى البيت وأنا أحمل على ذراعي سلة مليئة بالأوراق الصفراء اليابسة وبعضها بني ذابل، وضعتها على الأرض بحنق:

انظر يا أبي، حتى أن شكلها مثير للشفقة! متى تشفق علي أنتَ وتعفيني من الركض وراء شيء لن يحدث؟ فهذه الأرض لن تنبت أبدا، لا خير فيها يا أبي، لا خير سوى في تلك الشمس الحارقة التي تصهرني كل يوم.» (الرواية، ٢٠٢٤م، ص١٣) هذا المشهدُ يصور رفضَ ماريا للواقع المُهين، حيث تتحول المزرعة القاحلة في خطابها إلى استعارة للجمود والفشل الذي تعيشه قريتها. فـ"الأوراق الشاحبة الذابلة" في سلالتها ليست سوى دليل ملموس على إصرار المجتمع على التمسك بالأوهام. وتكرار عبارة "لا خير يُرتجى منها" يُعبّر عن الإحباط المزمن من محاولات إنعاش ما استعصى إحياؤه. أما تشبيهها للشمس بـ"اللاهبة التي تُذيبني" فيحول العنصر الطبيعي إلى أداة قهرٍ يومي، مما يضفي بُعداً تراجيدياً على معاناتها. هذا الحوار لا يَكشف فقط عن تمرّدها على سلطة الأب، بل تمرّدها على ثقافة الاستسلام السائدة في القرية، مما يجعلها صوتاً للمعارضة الهادئة التي تُمهّد لقبولها لاحقاً رواية محمد المُختلفة حول أسباب جفاف القرية الحقيقي.عبر معاناة ماريا مع واقعها المرير في وضح النهار، يتبين لنا أن معاناتها لا تنتهي مع غروب الشمس، بل تتحول إلى رعب ليلي يسرق منها حتى نعمة النوم، فتقول: «كانت ليلة صافية قد زين القمر فيها صفحة السماء، تفقدت الأبواب والنوافذ، أحكمت إغلاقها للمرة الثالثة فنحن نعيش في قرية لا تأمن فيها شر اللصوص والقتلة والسكارى ليلا، بينما أعيش أنا هنا مع أخي الصغير ووالدي العجوز الضعيف المصاب بالخرف.بعد أن أطفأت القناديل توجهت لغرفتي أخيرا، ودفنت نفسي وسط بطانيتي؛ لأستريح من يوم متعب، سرعان ما تناهت إلى أصوات العراك في الخارج؛ ولأن هذا أمر متكرر الحدوث انقلبت على جنبي بتضجر وأنا أدس رأسي تحت الوسادة متمتمة بشتائم عدة؛ لأني أعلم أن محاولتي لنوم هانى هذه الليلة أيضًا ستطول.» (الرواية، ٢٠٢٤م، ص١٨، ١٩) يُقدّم هذا النصّ تحليلاً عميقاً لشخصية ماريا الثانوية من خلال إيضاح الأبعاد النفسية والاجتماعية لمعاناتها. فوصفها للقرية بأنها مكان "لا تأمن فيها شر اللصوص والقتلة والسكارى" يُظهر الوعي الحاد بالانحدار الأخلاقي الذي تعيشه قريتها، بينما يُبرز حرصها على إغلاق الأبواب والنوافذ "للمرة الثالثة" الحالة القلقة والمسؤولية المُبكرة التي تتحملها كفتاة تعيل أسرة مكونة من "أخي الصغير ووالدي العجوز الضعيف".وتتحول المفارقة في المشهد من جمال "ليلة صافية زينها القمر" إلى قبح "أصوات العراك في الخارج"، مما يرمز إلى التناقض الدائم بين الطبيعة الهادئة والواقع المضطرب الذي تعيشه. كما أن استسلامها للموت عبر "دفن نفسي وسط بطانيتي" و"دس رأسي تحت الوسادة" يَكشف عن آلية دفاع نفسية تواجه بها عجزها عن مواجهة العنف المحيط، بينما شتائمها المكتومة تُجسد الغضب المكبوت لشابة تشعر بالعجز عن تغيير واقعها.

عبد الرحمن

عبد الرحمن هو أكبر مشايخ القرية ظاهرياً، ويتمتع بصورة الشيخ التقليدي المُهاب الذي يجمع بين الهيئة الدينية والاهتمام بالشؤون الاجتماعية. لكنه في الحقيقة يمثل النموذج الديني المنحرف الذي يشرعن الانحرافات الأخلاقية تحت ذرائع حضارية واجتماعية، مما يجعله الخصم الأيديولوجي الرئيسي لمشروع الإصلاح الذي يمثله محمد والشيخ هادي. من خلال هذه الشخصية المزدوجة، نكتشف كيف يستخدم عبد الرحمن منصبه الديني لتبرير الفساد، وذلك حينما استَفتاه الناس في آراء محمد: «بعد أحاديث محمد المتكررة وربطه الحالة الناس وما يجري عليهم بما يفعلونه وبالطريقةِ التي يسترزقون بها، توجه مجموعة من الناس إلى الشيخ عبد الرحمن وطلبوا منه فتوى صريحة لما يحدث.الشيخ عبد الرحمن هو أكبر مشايخ القرية يُحبه الجميع ويرونهُ رجلًا صالحا مؤمنا وتقياً، وأيضًا هو يتفهم أمور الناس الاجتماعية ويهتم بالحضارة.

– لقد أمر الإنسان بإعمار الحياة من جميع نواحيها ومن أجل هذا قد أتى أساسا، وها نحن نطورها ونعمرها ولو أطعنا محمدًا لبقينا على عهد آدم البدائي، هؤلاء أناس يسترزقون ليَطعموا أطفالهم بعملهم هذا، العمل شيء والدين شيء آخر، ما في قلب المرء أهم بكثير مما يجري على جوارحه، فلربما كانت قلوب السكارى أنظف من قلبك أيها العاكف في المسجد ليلا ونهارًا ..هذا ما قاله بعدما استَفتاه الناس فيها يقول محمد، بعد خروج الجميع.» (الرواية، ٢٠٢٤م ص٢١، ٢٢) يُبرز هذا المقطع الانحراف الأيديولوجي لعبد الرحمن كتلميذٍ للفكر العلماني تحت غطاء ديني. فهو يستخدم خطاباً مزدوجاً يبدأ بتقديم نفسه كرجل متدين "صالح تقي"، ثم ينقلب إلى مشرع للانحلال تحت شعار "إعمار الحياة". وتظهر خطورته في قلبه للحقائق حيث يصور الفساد على أنه "تطور" و"عمران"، والإصلاح على أنه "رجوع إلى عهد آدم البدائي". كما يكشف تفكيكه للدين إلى عمل شيء والدين شيء آخر" عن نظرة تجزيئية تبرر الفساد الأخلاقي، بينما مقارنته بين "قلوب السكارى" و"العاكف في المسجد" تمثل استهزاءً بالدين والقيم، مما يجعله ليس مجرد شخصية فاسدة، بل ممثلًا للتيار الديني المنحرف الذي يضفي الشرعية على الانحلال ويحارب دعاة الإصلاح تحت ستار الوسطية والواقعية.

الشخصيات الثابتة

تعد الشخصية الثابتة من العناصر الأدبية التقليدية التي تقدم للقارئ كياناً واضحاً ومستقراً، لا يعتريه التطور أو التحول الجذري خلال مسار العمل السردي. وهي بهذا تمثل فكرة أو سمة محددة، تظل ملازمة لها من البداية حتى النهاية، مما يسهل على المتلقي تتبعها والتنبؤ باسَتجاباتها فهي «ذات البعد الواحد التي تستطيع أن تتعرف عليها منذ البداية وتحد تصرفاتها مستقيمة في اتجاه محدود وحتى نهاية العمل.» (سلامة، ٢٠٠٤م، ص١٨) أن هذه الشخصية تُعرَف من الوهلة الأولى وتسير تصرفاتها في خط مستقيم ومحدود الوجهة إذ «تعتبر أيضا تلك الشخصية البسيطة التي تمضي على حال لا تكاد تتغير ولاتتبدل في عواطفها ومواقفها وأطوار حياتها بعامة، وهي التي تبنى حولة فكرة واحدة، ولا تتغير طول الرواية، وتفتقد الترتيب ولا تدهش القارىء أبداً بما تقوله أو تفعله. (ضياء، ٢٠١٠م، ص ١٨١) ومن الشخصيات الثابتة التي وردت في الرواية:

نور

نور ليس مجرد شخصية تقليدية تظهر في أحداث الرواية، بل هو كيان وجودي، رمز، وغياب حاضر يهيمن على وعي الراوية ويسكن عالمها الداخلي، ويظهر ذلك من خلال هذا الحوار: «فتحت المصحف لأقرأ سورة يوسف فأنا طالما كنت أجد في حزن يعقوب وشوقه عزاء لي ومواساة الحزني واشتياقي لصاحب أمري، كثيرا ما شبهته بحالي..

صعدت لسطح الدار عندما أرقني الألم، فرحت أتأمل في السماء والنجوم في هذا الكون العظيم.

إن نورا ما زال يتنفس، أثق بذلك جذبت آهة عميقة لصدري ورحت أحدثه في خلدي:

نور، يا عزيز فؤادي.

لا زلت موجودا في مكان ما مني، لم تفترق عني!

لكنني أشتاق إليك اشتياق يعقوب إلى يوسف، فقد تركتني وحيدا هنا وغبت في غياهب الدُّنيا طويلا، تألمت كثيرًا وعشتُ أياما سوداء وافتقدتك روحي وتاهت في طرقاتها رسائلي إليك وانقطع كل شيء.تمنيت عودتك كثيرا لكن الحظ لم يحالفني أو أن نفسي خانتني. أفكر أحيانًا أتراني صادفتك ولم أعرفك !؟» (الرواية، ٢٠٢٤م، ص٣٢) تشكل شخصية نور والتي تشبه شخصية يوسفَ في قصة يعقوب، ليصبحَ شوقُ محمد إليه شوقاً مصيرياً روحياً يتجاوز العلاقات العابرة. من خلال خطابه المباشر له، يتحوَّل "نور" إلى محاورٍ خياليٍ تيبثُّ له ألمَه وأسئلته، مُحوِّلاً إيَّاه إلى محرّكٍ رئيسيٍ للسرد الداخلي وإلى قارئٍ مثاليٍ تُوجَّه له الرواية. سؤاله المُقلق: "أتراني صادفتك ولم أعرفك؟" يرفع "نور" من مستوى الحبيب الغائب إلى مستوى الإمكانية الوجودية الضائعة، واللّقاء المُحتَمَل مع الذات أو مع معنى الحياة الذي أَضاعه في زمن الحرب والانهيار، مُجسِّدًا بذلك الجرحَ المركزيَّ الذي لا ينضب: شوقٌ إلى نورٍ في ظلمة دامسة.ومن حوار الذات مع الغياب الوجودي، تنتقل الرواية إلى حوار الجماعة حول الأسطورة الحية، حيث يتحول "نور" من رمزٍ داخليٍ حميم في وجدان الراوية إلى موضوعٍ للجدل والصراع في الوعي الجمعي للقرية، ليكشف عن التناقض الحاد في تصوراته: بين من يراه مُخلِّصاً أسطورياً، وبين من يراه تهديداً وجودياً: «هنا قال محمد بينما كان يدور حولهم:

سيعود حتما، أنا أؤمن بذلك سيعود إلى هذه القرية؛ ليعيد لها

الحياة، لينقذكم جميعا تماما كما أنقذكم جده من قبل.

تمتم بعضهم:

– بدأ يهذي مجددًا ...

– إنه يهذي حقًا لقد جُنَّ تماما.

بينما اكتفى آخر بهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال، وصاح آخر بغضب

اخرس أيها المجنون إن كان نور ذاك حيا حقا وسيعود؛ فإنه سيعود ليفنينا عن بكرة أبينا وليس لينقذنا كما تزعم أنت.

أطلق محمد ضحكته وقال:لا تعرفون نورا، فقلبه يفيض بالحنان كما لا يوجد في قلب أحدكم على الإطلاق.» (الرواية، ٢٠٢٤م، ص٣٣، ٣٤)

في هذا المشهد، يتجلّى "نور" كـ أسطورة جماعية مثيرة للانقسام، حيث ينتقل من كونه غائبًا حميمًا في وجدان الراوية إلى رمز تاريخي متنازع عليه في ذاكرة القرية. فهو في وعي محمد المخلِّص المتجدد الذي سيعيد الحياة، تمامًا كما أنقذ جده من قبل، مما يضفي عليه بُعدًا أسطوريًا ويجسّد الأمل في دورة خلاص متكررة. لكن هذه الصورة تتحطم على صخرة الوعي الجمعي الذي ينقسم بين نَفْيِه باعتباره ضربًا من الهذيان، وبين الخوف منه باعتباره تهديدًا وجوديًا قد "يفنينا عن بكرة أبينا"، مما يكشف عن تاريخ عنيف أو صدمة دفينة ترتبط بذكره. هكذا يتحول "نور" من رمز للحنين الفردي إلى مرآة تعكس شرخ المجتمع العميق، وتُظهر التناقض المأساوي بين نقاء متخيَّل للماضي (الذي يمثله) وفساد الحاضر المرير (الذي يعيشه سكان القرية).

الشخصيات المتغيرة

تُعدّ الشخصيات المتغيّرة من أكثر الأنماط حيوية داخل البناء الروائي، لما تتميز به من قدرة على التحوّل والنمو عبر مسار السرد. فهي شخصيات لا تبقى على صورة واحدة، بل تكشف الأحداثُ المتعاقبة عن جوانب متعددة من طبيعتها وسلوكها، الأمر الذي يمنح النص بعداً ديناميكياً واضحاً. وينسجم هذا التصور مع ما يرد في التعريف بأنها «شخصية متغيرة الأحوال ومتبادلة الأطوار ولها في كل موقف شأن فهي لا تستقر على حال.» (مرتاض، ١٩٩٨م، ص٨٩) وهذا التبدّل المستمر يجعل القارئ أمام شخصية في حالة تشكّل دائم، تُظهر من خلال المواقف المتتابعة وجوهاً جديدة تكشف عمقها الداخلي وتعقيدها.كما يؤكّد هذا الطابع التحوّلي ما جاء في الوصف بأنها «الشخصية التي يتم تكوينها بتمام القصة تتطور من موقف لآخر، و يظهر لها في كل موقف تصرف جديد يكشف لنا عن جانب جديد منها.» (إسماعيل، ٢٠١٣م، ص١٥١) ومن بين الشخصيات المتغيرة التي تناولتها الرواية:

عمران

عمران هو شخصية الشاب الطموح المتغير الذي يمثل مسيرة الكفاح والنمو من الفقر والجهل إلى العلم والمعرفة. بدأ حياته كحامل للأمتعة الثقيلة في طفولته، ثم تدرج في العمل حتى أصبح تاجراً ومتعلماً، مما يجعله نموذجاً للشاب الذي يرفض الاستسلام للظروف، ويصر على تغيير مصيره عبر التعلم والعمل الجاد، ليكون أحد أركان مشروع النهضة الذي يقوده الشيخ هادي. عبر هذه الشخصية المتطورة، نستمع إلى عمران وهو يسترجع ذكريات ماضيه البعيد بلهجة الحكمة التي اكتسبها مع الزمن: «أثناء تجوالي الطويل بين المدن والقرى تقاطعت طرقاتي اليوم مع طرقات "قرية التلة " قريتي القديمة، التي لم أعد أسكن فيها منذ سنوات حينما اقتربت من أسوارها توقفت وشخصت بصري إليها وأنا على صهوة جوادي البني ، طافت هناك ريح ساخنة تحمل معها رائحة الماضي التي حملتني بعيدا إلى ما قبل أربعين عاما ....

كُنتُ شابا صغيرًا لا يتجاوز عمري النيف والعشرين.

كُنتُ اعتني بأمي وثلاثة إخوة يصَغرونني سنا، أكبرهم عاتكة التي كانت في الثامنة عشرة من ربيع عمرها.

وحيث تطلبت أحلامي وآمالي أن أشقى دوما ...

عملتُ في طفولتي في حمل الأمتعة الثقيلة وأجر ذلك لم يكن إزاء مشقتي لكنه أفضل من لا شيء.» (الرواية، ٢٠٢٤م، ص٧١) يُبرز هذا المقطع المسار التطوري الذي اتسمت به شخصية عمران، حيث يظهر من خلال استرجاعه للماضي ذلك التناقض الحميمي بين الماضي والحاضر؛ فمن كان "حامل أمتعة ثقيلة" في طفولته، أصبح الآن فارساً على "صهوة جواده" يمتلك حكمة السنوات. وتكشف العبارة "أجر ذلك لم يكن إزاء مشقتي لكنه أفضل من لا شيء" عن النضج المبكر والقدرة على تقبل الظروف الصعبة دون يأس، كما أن تحمله مسؤولية إعالة أسرته في سن مبكرة يظهر التحمل والمسؤولية اللذين شكلا أساس شخصيته. أما "الريح الساخنة" و"رائحة الماضي" فتمثل الحنين الممزوج بالألم لمرحلة شكلت هويته، مما يجعله شاهداً حياً على تحولات القرية عبر الأربعين عاماً، وشخصية تربط بين ماضي القرية المَليء بالمعاناة وحاضرها الذي يحمل بذور التغيير.

مروان

تُعدُّ شخصية مروان في الرواية نموذجاً للشاب المنحرف الذي يجسد صراع الهوية والانتماء، فهو من ناحية ينتمي لعائلة محترمة (ابناً لعبد الرحمن)، ومن ناحية أخرى يقود عصابة إجرامية. شخصيته المتغيرة تظهر في تذبذبه بين الغرور الإجرامي والخضوع الأبوي، مما يجعله شخصية معقدة تجسد تناقضات المجتمع الفاسد.المقطع التالي من الرواية يجعلنا ننظر إلى عالم مروان السري وهو يروي بنبرة الفخر الإجرامي: «كنا في احتفال؛ فقد نجحنا بقطع الطريق على عشر قوافل في هذا النهار الحافل بالإنجازات المليء بالغنائم، ها هم أصحابي يدقون الطبول بمرح حولي بينما أرقص بينهم برهو كوني الأكثر شجاعة وغطرسة رغم أني الأصغر سنا بينهم، وفيما كان أصحابي يشربون النبيذ حتى تتبلل وجوههم توجب علي الرجوع إلى القرية هذه الليلة.

حيث إنني أسكن مع عصابتي قطاع الطرق في مخبأ بعيد في صحراء خارج القرية.

كانت أمي تسأل عني كثيرًا بالإضافة إلى وجود عمل مهم يجب أن نيمه هذه الليلة وفق تخطيط من أبي.» (الرواية، ٢٠١٤م، ص٧٩) يُبرز هذا المقطع الازدواجية الخطيرة في شخصية مروان، حيث يظهر التناقض الحاد بين حياته الإجرامية في الصحراء وحياته الأسرية في القرية. فوصفه لانتصاراته الإجرامية بـ"الإنجازات" و"الغنائم" يكشف عن تشوه المفاهيم الأخلاقية لديه، حيث يحوّل الجرم إلى مناسبة للفخر والاحتفال. كما أن تأكيده على كونه "الأكثر شجاعة وغطرسة" رغم صغر سنه يُظهر التعويض النفسي عن مكانته الأسرية والاجتماعية. هذا التناقض بين حفلة الشرب في الصحراء وأمٍّ قلقة تسأل عنه في القرية، يجعل من مروان شخصية تراجيدية تجسد تداعي القيم المجتمعية وانحراف الأجيال في ظل غياب القدوة الصالحة.

زياد

تُعدُّ شخصية زياد الابن الأصغر للشيخ عبد الرحمن، نموذجاً للشاب المتطرف المنغلق فكرياً، الذي يمثل الامتداد الأكثر تشدداً لخطاب والده المنحرف. يتميز بردود أفعاله الغاضبة و الاستهزائية، ورفضه لكل صوت معارض، مما يجعله تجسيداً لـ التعصب الأعمى والجهل المغطى بثوب الدين. عن طريق هذه الشخصية المتصلبة، ننصت إلى حواره مع والده الذي يكشف مدى حنقه واستهزائه بمحمد: «ثار زياد غاضبا وهو الابن الأصغر للشيخ عبد الرحمن.

– المجنون اللعين يحرض الناس ويكاد يقنعهم أيضًا، ألا ترى يا أبي أن يضع كلمات منه أنت بهم إلى هنا طالبين فتوى !!!!

نهض الشيخ عبد الرحمن من مكانه وهو يقول سارخًا:

– ليست بضع كلمات منه يا بني بل عقولهم أنت بهم إلى هنا.

– أنت تعني أن مجنونا قد تحكم بعقولهم؟

– أتصدق أنت كلامك هذا ؟!

– أتي كلام ؟

– محمد ليس مجنونا، إنه عاشق حزين، فاقد حيران! أجل لربما أبقى فقده الهادي وعائلته بعد فقده لوالديه على نفسه أثرًا كبيرًا، لكنه لم يفقد عقله

– لقد حاولت احتواءه يا أبي، أنت لم تقصر ! أخذته وجعلته واحدًا

منا لكنه لم يقبل بالبقاء معنا وبقي يتهرب حتى نستي طريقه إلى هنا وتاه في الطرقات كالمخبول عموما فأمره لا يهمني.» (الرواية، ٢٠٢٤م، ص٢٢) يُبرز هذا الحوار الانغلاق الفكري الذي تتميز به شخصية زياد، حيث يظهر من خلال ردود أفعاله الغاضبة رفضه المطلق لأي صوت معارض. فتصنيفه لمحمد بـ"المجنون اللعين" لا يعكس مجرد اختلاف في الرأي، بل رفضاً مطلقاً لشرعية الخطاب النقدي. وتكمن خطورة شخصيته في تحويل النقاش الفكري إلى صراع شخصي، حيث يحوّل الحوار الموضوعي إلى مشكلة "احتواء" ورفض للانضمام لصفهم.كما يُظهر الحوار التناقض بين رؤية الأب والابن، فبينما يحاول عبد الرحمن تحليل دوافع محمد النفسية بعقلانية نسبية، يصر زياد على التصنيف الإقصائي. وعبارة "أمره لا يهمني" في النهاية تكشف عن الاستعلاء واللامبالاة اللذين يميزان الشخصية المتطرفة التي ترفض حتى مناقشة الآراء المخالفة. هذا الموقف يجعل زياد ممثلاً للتطرف الديني الزائف الذي يرفض أي محاولة للإصلاح أو المراجعة النقدية.

علاقة الشخصية بالحوار

يُعتبر الحوار وسيلةً جوهريةً لتجلية ملامح الشخصية في النصّ الأدبي؛ إذ يسلّط الضوء على صفاتها البشرية عبر محتوى خطابها وأدائها اللغوي، ويُظهِر حالتها النفسية وسيرورة تطورها مع تقدّم الأحداث حيث«يعد الحوار معيارا نفسيا يستطيع أن يكشف لنا الحالة النفسية للشخصيات.» (هيام، ٢٠٠٤م، ص ٢١٣) ويتجلى هذا الكلام في هذا المقطع من الحوار:

«حسنا أنا آسف لن أدخل درس أخيك مرة أخرى.

تقدمت لأجلس بجانبه على الطريقة ذاتها:

لم أعن ذلك، أظن أن أخي شعر بي.

هل هذا سي؟

– لا أعلم.

جلسنا في صمت لم يخترقه سوى صوت صراصير الليل، بعد دقائق

قلت: كنت أعرف طوال تلك السنوات أنني أعشقها أساسا....

كيف عرفت؟

– إنني حكيم، لم يكن من الصعب على تشخيص هذا المرض.

التفت بكامل جسده إلي وسأل فاغرا فاه بتعجب:

مرض ؟!

أجل مرض مرض طالما خشيت علاجه؛ لكن الأوان قد حان.

نهضت مسرعًا، تداركني سؤاله:

توقف، ماذا ستفعل ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟؟

أربعون عاما بلا مطر .

التفت ونظرت ناحيته من زاوية عيني:

إني ذاهب إلى ربي ليهديني، سأعتكف في المسجد بدءًا من هذه

الليلة.» (الرواية، ٢٠٢٤م، ص١٦٢، ١٦٣)

الحوار يبدو متقطعاً وحميمياً في نفس الوقت. نلاحظ أن الشخصيتين لا تتحدثان بكثرة. هناك جمل قصيرة جداً ("لا أعلم") ولحظات صمت طويلة ("جلسنا في صمت"). هذا لا يعني أن الحوار ضعيف، بل على العكس. هذا الصمت والتقطيع يعكسان أن هناك مشاعر كبيرة وكثيفة يصعب قولها بالكلمات. الراوي يحمل شيئاً ثقيلاً في داخله ولا يستطيع التعبير عنه بسهولة.ثم يحدث انفجار مفاجئ في المشاعر. فجأة، وبعد كل هذا الصمت، يقول الراوي جملة قوية ومهمة جداً: "كنت أعرف طوال تلك السنوات أنني أعشقها أساساً". هذه الجملة هي مثل فتحة في سد، فكل المشاعر التي كتمها لسنوات طويلة تخرج دفعة واحدة. هذا يجعلنا نفهم أن الراوي كان يعيش في صراع داخلي طويل، وهذا الحوار هو اللحظة التي قرر فيها الاعتراف أخيراً.فكرة "الحب كمرض" هي فكرة مركزية. عندما يقول الراوي إن حبه هو "مرض" وأنه "خشي علاجه"، فإن هذا يعطينا نظرة مهمة إلى طريقة تفكيره. هو لا يرى الحب كشيء جميل وسهل، بل يراه كمشكلة ومعاناة طويلة. كلمة "مرض" توحي بأن هذا الشعور كان يؤلمه ويسبب له المتاعب، مثل المرض تماماً.رد فعل الأخ يضيف إلى قوة المشهد. عندما نرى الأخ مندهشاً و"فاغراً فاه"، نشعر أننا مثله – مندهشون من هذا الاعتراف القوي. هذا يجعل المشهد أقوى وأكثر واقعية، لأننا نرى تأثير كلمات الراوي على شخص آخر موجود معه.القرار المصيري في النهاية هو نتيجة طبيعية للحوار. بعد كل هذا الاعتراف والحديث عن "المرض"، يأتي قرار الراوي بالذهاب إلى المسجد والاعتكاف. هذا القرار ليس مفاجئاً، بل يبدو كخطوة ضرورية. هو يشعر أنه يحتاج إلى علاج روحي بعد كل هذه السنوات من المعاناة. ربط هذا القرار بعنوان الرواية "أربعون عاماً بلا مطر" يجعلنا نفهم أن "المطر" هنا قد يكون رمزاً للراحة النفسية أو الحل الذي يبحث عنه بعد جفاف طويل.يُمثِّل الحوار الخارجي المباشر في هذا النص نافذة نقدية مركزية تُبْرِز ملامح الشخصيات وتفاعلاتها بشكل حادّ. فهو«نمط تواصل حيث يتبادل ويتعاقب الأشخاص على الارسال والتلقي. » (علوش ١٩٨٥، ص ٧٨)

الخاتمة

بوصولنا إلى نهاية هذا البحث، تتكشف لنا رواية "أربعون عامًا بلا مطر" كنسيج إبداعي معقد، حيث لا ينفصل تحليل الأنماط النفسية للشخصيات عن تشريح الواقع التاريخي والاجتماعي الذي تشكل فيه. لقد أظهر التحليل أن أنماط الشخصيات الرئيسية والثانوية لا تُفهم بمعزل عن رمزية "الغياب" المحورية؛ غياب المطر كتعبير مجازي عن غياب العدل والأمان والحرية. فالصراع الداخلي للشخصية المحورية، المترنحة بين وهن الجسد وتأمل الوعي، وبين الحنين والانعزال، هو انعكاس لصدمة جماعية طويلة الأمد، جعلت الزمن النفسي وكأنه متوقف في حالة انتظار لا

تنتهي، تماماً كالأرض التي حُرمت من الغيث.وعبر المقاربة التي تربط بين الحالة النفسية والإيقاع الطبيعي، اتضح أن "الدائرية" و"الانتظار" هما السمتان الغالبتان على الأنماط الشخصية. فالشخصيات، وخصوصاً النسوية منها التي تحمل وطأة التضحيات، تعيش في حلقة مفرغة من الترقب والخيبة، مما يشكل "نموذجاً نفسياً" خاصاً بالإنسان تحت وطأة القمع وفقدان السيادة على مصيره. وقد نجحت الشخصيات الثانوية، برغم ثباتها النسبي، في خلق مناخ نفسي موحٍ يعمق إحساس القارئ بثقل الوحدة وصرخة الصمت، مكملةً الصورة التي ترسمها الشخصية المحورية.أخيراً، يثبت هذا البحث أن التصنيف القائم على تفاعل الشخصيات مع "فصول" تاريخها القاسي وبيئتها المجدبة، لا يقدم مفتاحاً لفهم البنية الروائية فحسب، بل يسلط ضوءاً نقدياً على الآليات النفسية للبقاء تحت الضغط. وبهذا، تتحول الرواية من سرد لمأساة فردية أو محلية إلى نموذج إنساني عام، يقدم رؤية قابلة للتطبيق في تحليل النصوص التي تلتقط العلاقة الجوهرية بين تشوهات المكان والانزياحات النفسية، مساهماً في إغناء الخطاب النقدي العربي الذي يزاوج بين الاجتماعي والنفسي في قراءة الأدب.

المصادر والمراجع العلمية

١. ابراهيم عباس، (٢٠٠١م.) تقنيات البنية السردية في الرواية المغربية وطن، الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار الجزائر، بدون الطبعة.

٢. ابراهيم فتحي، (١٩٨٨م.) معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس، بدون رقم الطبعة.

٣. ابن منظور، (١٩٩٣م.) لسان العرب، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، ط٣.

٤. اسماعيل، عز الدين، (٢٠١٣م.) الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، مصر، القاهرة، ط٩.

٥. الجوهري، (١٩٩١م.) اسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٤.

٦. جيرالد برنس (٢٠٠٣م٠) المصطلح السردي ، المجلس الأعلى للثقافة، الجزيرة القاهرة، ط١.

٧. سعيد علوش (١٩٨٥م.) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١.

٨. سلامة، محمد على (٢٠٠٤م) الشخصية الثانوية ودورها في المعمار الروائي عند نجيب محفوظ دار الوفاء للطباعة والنشر الإسكندرية، مصر، ط١.

٩. صالح، حامد جاسم، (٢٠١٥م.)الشخصية في روايات تحسين كرمياني، دار تموز، دمشق سوريا، ط١.

١٠.ضياء على لفته (٢٠١٠م.) البنية السردية في شعر الصعاليك، دار الحامد للنشر والتوزيع الأردن عمان، ط١.

١١.عبد الخالق نادر (٢٠١٠م.) الشخصية الروائية بين أحمد باكثير ونجيب الكيلاني، دار العلم والإيمان.

١٢.عبد الملك، مرتاض، (١٩٩٨م.) في نظرية الرواية، دار عالم المعرفة، الكويت، بدون طبعة.

١٣.الفراهيدي، الخليل بن أحمد (٢٠٠٣م.) العين، تحقيق عبد الحميد هنزواني دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط٢.

١٤.فريال سامح، (١٩٩٩م.) رسم الشخصية في روايات حنا مينا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١

١٥.قاسم حسين صالح (١٩٨٤م) الإنسان من هو بغداد دار الثقافة والنشر، سلسلة دراسات بدون طبعة.

١٦.هلال، محمد غنيمي، (١٩٧٣م.) النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت، بدون رقم الطبعة.

١٧.هيام شعبان (٢٠٠٤م) السرد الروائي في أعمال إبراهيم نصر الله. د ط الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، بدون طبعة.